17 ème Année No. 835

Lundi — 4 — 7 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٨٣٥ « القاهرة في يوم الاثنين ٨ رمضان سنة ١٣٦٨ — ٤ يوليو سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

١٠ — أمم حـــائرة

سبيل الهدى والطمأنينة

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض بالمملكة السعودية

عرضتُ جواب من قلق الآراء واضطراب الأعمال في مدنيتنا هذه، وذكرت مواطن تسرب إليها القلق وكانت جديرة أن تنجو منه؛ وبدت فيها بوادر الخلل وهي خليقة أن تنأى عنه، وذكرت الحكومات والقوانين والصحف والنساء والأسر

والآن أفصل القول، بعد إجماله، في السبب الذي تنشأ عنه هذه العلل، والأصل الذي تتفرع منه هذه الأدواء لنعرف الدواء ونلتمس الشفاء:

لابد للنفس لما يقيمها على طريقة، ويسيرها على نهج، ويوجه رغباتها وجهة واحدة، ويجمع نزعاتها على سنة بينة. فكلما همت بأمر رأت أمامها سبيلا واضحة ولم تشتبه عليها المناهج، ولم تضطرب بها الآراء وتتجاذبها الأهواء. وكلما حزبها أمر لم تتلبث ولم تذهب شعاعاً؛ بل تعمد إلى عدتها من الآراء القويمة والمذاهب المستقيمة، فتعرف ما تفعل وما تجتنب، وما تأخذ وما تدع.

والذي يقيم النفس على طريقة، ويعرفها منهجها فيما تهم به، وفيما يَنزل بها، هو العقائد الراسخة، والقوانين الواضحة، عقائد الدين، وقوانين الأخلاق، وشرائع الأمة كلها. فإذا ثبتت النفسَ العقائد، وقومتها الآداب، ووضحت أمامها القوانين، خضعت أهواؤها للحق، واتفقت نزعاتها على الخير، وسارت في أعمالها على قوانين تطمئن بها، وتسكن إليها، وتحرص عليها، ولم تشتبه عليها السبل، وتنهم أمامها الغايات.

وإن لم تمثل النفس إلى عقائد بينة، وترجع إلى مذاهب معروفة، لم تستطع السير على طريقة، ولا العمل على قانون، واضطربت في شدتها ورخائها، وحربها وسلمها، وكانت نهباً لنزعات مختلفة، وآراء متشاكسة، وتذبذبت بين دواعي الوقت وخطرات الساعة، واختلف عملها بين الحين والحين، ولم تثبت في الحق، ولم تصبر في الشدائد، وكانت عرضة للحيرة كل آن. والحيرة هي تفرق الفكر، بل تقسم النفس، ولا يبلى الإنسان في حياته بشر من الحيرة، وكثيراً ما أفدحت بالإنسان على الهلاك.

إن نزعات الإنسان كثيرة مختلفة؛ نزعات إلى اللذة وإلى الغلبة والسيطرة وإلى إيذاء من يخالفه، وحسد من يفضله، والبغي على من يحسده، وإلى جمع المال والحرص عليه. وهو يحب ويبغض، ويسكن وينفر، ويرضى ويغضب، وفي كل هذا تزوات ونزعات.

ومواضع هذه النزعات كثيرة لا تحد، تعرض للإنسان كل حين، وفي كل مكان، فهو إن لم يعتصم بالعقائد والمذاهب يمضي على غلوائه إلى أهوائه، ويضطرب فيأخذ الشيء حيناً ويدعه حيناً، وينهج السبيل وقتاً ويحيد عنه وقتاً. شريعته رغبته، وقانونه نزعته. وكيف تكون الرغبات المتغيرة والنزعات المتقلبة شريعة أو قانوناً؟ وهذا فرق ما بين الخير والشرير، والصلح والمفسد.

وإذا جار الإنسان أو سار على هواه، اضطرب في نفسه، واضطرب في جماعته، وصادمت أهواؤه أهواء غيره، فصار أمره في الجماعة نزاعاً وشقاقاً، واختلافاً وافتراقاً.

وهذه النزعات كثيرة كثرة الحسيات المحيطة بالإنسان وهي لا تحد، والجزئيات التي تتعلق بها رغبته وهي لا تحصى؛ فلا بد من عقيدة أو مذهب يرد هذه الكثرة الحسية إلى معنى جامع من معاني الخير أو الشر، فيسير الإنسان على قانون من التحريم والتحليل، والعرف والنكر. فإذا التزم الإنسان العدل والإحسان — مثلا — حسنت له آلاف من الأعمال الجزئية التي يرى فيها معنى العدل أو الإحسان، واستقام على هذه الطريقة لا يتردد في كل حادثة، ولا يتحير في كل جزئية. وإذا كره الجور والإساءة كذلك يتجنب آلافاً من الأعمال يدرك فيها معنى الجور والإساءة. وهكذا تجمع معاني الخير والشر في نفس الإنسان، هذه الجزئيات التي لا تنتهي، وتردها إلى كليات يشرع بها قوانين يسار عليها.

وإذا انتقلنا من الجزئيات الحسية إلى الكليات المعنوية، فقد انتقلنا من العالم الخارجي إلى النفس، ومن الماديات إلى المعنويات، ومن الجثمانيات إلى الروحيات. يجب أن نزكي النفوس ونزيدها إدراكا للمعاني وكلفاً بها، حتى تسيطر على الحسيات سيطرة كاملة، فتعمل الخير وتجتنب الشر، غير مبالية بآلاف الصور الحسية وآلاف اللذات الجزئية.

ويسمو الإنسان شيئاً فشيئاً إلى إدراك اللذات المعنوية التي لا تحد ولا تنتهي، ولا يقدرها قدرها إلا من عرفها وأنس بها، ويتمكن الإنسان في عالم المعاني، حتى يسمو على الحدود، حدود الزمان والمكان والأشخاص، فتتسع حياته، وتعظم همته، ويكلف بكل جليل، وينفر من كل حقير، ويُكبر بالقوانين العامة، ويستصغر المنافع الخاصة.

إذا جمعت النفس الواحدة هذه المعاني أو هذه القوانين، وجمعت الأنفس الكثيرة أي الجماعة أو الأمة هذه المعاني وهذه القوانين، استقام الواحد على طريقه مؤتلفاً مع كل واحد، وسارت الجماعة في طريقها متآلفة متحابة.

وحينئذ يكون سعي الواحد لنفسه وللجماعة كل حين، إذ التأمت منفعته ومنفعتها بهذه القوانين الجامعة المؤلفة، وكان صلاحه صلاحها، وفساده في فسادها.

وترق هذه المعاني في النفوس وتتمكن حتى يجد العامل الخير كل الخير، واللذة كل اللذة، في إعطاء غيره بالعدل، وفي حرمان نفسه بالعدل، وحتى يكره كل الكراهة أن يأخذ ما ليس من حقه، ويأبى كل الإباء أن يستمتع بما يؤذي غيره، بل لا يجد فيها لذة ومتاعاً، ولكن ألماً وندماً.

ثم ترق هذه المعاني في النفوس وتتمكن، حتى يبلغ الإنسان المرتبة التي سماها بعض الصوفية مرتبة الكلية، وهي المرتبة التي بلغت بأحد المتصوفين أن يقول: «أشعر بأني مأخوذ بذنوب الناس كلهم». كأنه ارتكب كل ما ارتكب الناس من ذنوب، فهو يألم لها ويخاف عاقبتها.

* * *

والجماعة كالنفس الواحدة تؤلف بينها العقائد وتهديها الشرائع، وتنشئها التربية على العمل بالعقيدة وإطاعة الشريعة، فتجتمع آحادها، وتتعاون أفرادها، فتلقى الحوادث بعقائد تثبتها، وشرائع تقومها، مجتمعة غير متنافرة، متعاونة غير متخاذلة، فتسير إلى غاية معروفة، على سبيل بينة، قوية على السير، متعاونة عليه، محتملة كل مشقة، مقتحمة كل عقبة.

والأمة التي لا تضمر عقيدة صحيحة، ولا تطيع شريعة مرعية، ولا يؤلف بينها نظام جامع، لا يثبتها في النزوات إيمان ولا خلق، فتلقى الخطوب فزعة هلعة، متدابرة متنافرة، متجادلة متلاعنة، كتلة من النمل تفجؤها الذئاب.

فالعقائد والمذاهب والشرائع هي وسائل الوفاق في النفس